

محطات على درب الحياة (خاطر وذكريات)

ممدوح رحمون

بيروت: دار النفائس، 2005، 640 صفحة

تشهد الحياة الثقافية العربية، منذ ربع قرن تقريباً، ازدهار ضريبين من ضروب الكتابة هما: الرواية، والسيرة الذاتية. وتكاد الرواية اليوم تقصي الشعر عن مكانته التي تربع عليها طويلاً. أما السيرة الذاتية فباتت، إلى جانب الكتابة التاريخية، ميداناً رحباً وعلمياً لتقويم بعض جوانب التاريخ البشري. واللافت أن الرواية العربية الحديثة تستند، بقوة، إلى السيرة الذاتية وإلى مخزون الذاكرة لدى الراوي، حتى بات التفتيش في السيرة الذاتية للروائي أحد عناصر تفكيك روايته. والرواية، بهذا المعنى، تحولت، في بعض أنماطها، إلى مجرد صوغ جديد للسيرة الذاتية، لكن بأدوات فنية "مبتكرة" وتقنيات سردية مطابقة تنتمي، في الشكل على الأقل، إلى الفن الحكائي الشائع. في هذا السياق نقرأ كتاب ممدوح رحمون: "محطات على درب الحياة"؛ فهو أقل من سيرة ذاتية وأكثر من كتاب في الخواطر. إنه مزيج من التذكر والوجدانيات والتوثيق معاً، وفيه تشتبك الذكريات بالسيرة وبالإخوانيات في ائتلاف مفيد. وهذا الكتاب الذي قدم له الرئيس سليم الحص هو جولة في الذكريات عن دمشق وفلسطين والثورة السورية الكبرى والحياة السياسية الصاخبة في سورية في إبان الانتداب الفرنسي ثم بعد الاستقلال وفي ظل الوحدة السورية - المصرية.

ولعل ما يميز هذا الكتاب احتواؤه على عدد وافر من الوثائق والصور، فضلاً عن معلومات جديدة تصحح بعض المعلومات التاريخية الشائعة. وعلى سبيل المثال، ينبري المؤلف إلى تصحيح تاريخ ميلاد ميشال عفلق فيجعله في سنة 1912 وليس في سنة 1911 كما ورد على شهادة قبره في بغداد، وليس في سنة 1910 كما جاء في عدة مصادر. ولهذا نشر صورة إخراج قيد عائلي لميشال عفلق يظهر فيه اسمه واسم زوجته وأسماء أولاده مع التواريخ الصحيحة لميلادهم، ونشر وثيقة زواج عفلق كما صدرت عن المكتب البطريكي الأورثوذكسي في دمشق.

السيرة الحافلة

ولد ممدوح رحمون في زقاق الموصلي بحي الميدان في دمشق ليلة 1928/12/25، أي ليلة ميلاد المسيح. وأهل الميدان شديداً الافتخار بهذا الحي الذي كان له شأن كبير في الحركة الوطنية السورية، ولمع من أبنائه نخبة من المجاهدين والسياسيين والمفكرين أمثال محمد الأشمر وميشال عفلق ومحمد بهجت البيطار، وفيه ولد نقولا زيادة، كما درج في أرجائه، وفي منزل شقيقته بالتحديد، قسطنطين زريق المولود في حي القيمرية المجاور للميدان. وممدوح رحمون ينتمي إلى عائلة شديدة الغيرة على الوطن؛ فجدّه سعيد رحمون هو الذي قام بتهريب عبد الرحمن الشهبندر إلى فلسطين بعد إخمد الثورة السورية الكبرى في سنة 1927، وهو الذي استقبله بمهرجان شعبي عند عودته إلى دمشق في سنة 1938. وعمه عز الدين أخفى في منزله نجيب الفرا الذي أطلق النار على بهيج الخطيب (رئيس حكومة المديرين) الموالي لفرنسا. ثم نقله، بعد ذلك، إلى فلسطين تهريباً. وممدوح رحمون سوري وفلسطيني وأردني ولبناني معاً، وهي حال تشبه الكثير من أحوال العائلات في هذه المنطقة التي نشأت على أنها عثمانية، فإذا بها، بين عشية وضحاها، بعد خروج الأتراك من بلاد الشام، تستفيق على حال مختلفة. فوالده العثماني صار، بعد انهيار الدولة العثمانية، دمشقياً. ووالدته العثمانية أيضاً صارت بيروتية. وفي ما بعد تحول والده أردنياً ثم فلسطينياً بسبب إقامته وأعماله بين الأردن وفلسطين. وهو السوري صار لبنانياً في تسعينيات القرن العشرين، وبقي عمه عز الدين وأولاده أردنيين. وهناك جزء من عائلته يقيم بالمغرب. وقد عرض عليه إدريس بنونة، وكان سفيراً للمغرب في سورية في إحدى الفترات، الجنسية المغربية فاعتذر عن عدم قبولها لانتهاء الحاجة.

في أي حال، فإن ممدوح رحمون ما إن بلغ مبلغ الرجال في حي الميدان المفعم بالسياسة والوطنية، حتى تطوع في جيش الإنقاذ سنة 1948 وخدم في منطقة جبج. وهو يروي كيف شاهد بأمر عينه غولدا مئير وهي تزور الملك عبد الله بن الحسين في قصر الشونة في سنة 1948. وفي سنة 1949، بعد سقوط فلسطين، حكم عليه بالإعدام في عهد

حسني الزعيم بتهمة نسف الكنيس اليهودي في دمشق، وكاد الإعدام يُنفذ به وبشقيقه معاً لولا الانقلاب الذي أطاح الزعيم فأعدم الثاني ونجا الأول. الغريب في سيرة ممدوح رحمون أن المبادئ الأولى لحزب البعث وُضعت في منزله الوالدي بحي الميدان بعد اجتماعات متتالية بين ميشال عفلق وجلال السيد وصالح الدين البيطار ومدحت البيطار. ومع ذلك لم ينتم إلى هذا الحزب، وإنما إلى مجموعة عُرِفَت باسم "القوميون العرب" وكانت إحدى الخلايا التأسيسية لحركة القوميين العرب في ما بعد.

معلومات جديدة

يحفل الكتاب بكثير من الوثائق التي لم تنشر كاملة من قبل، وبعضها ينشر أول مرة مثل رسالة حسني الزعيم إلى المجاهد محمد الأشمر، ورسالة الملك عبد الله بن الحسين إلى محمد الأشمر أيضاً، ورسالة الأمير عادل أرسلان إلى الشيخ الفاضل (؟) والشيخ فريد (؟) عن ثورة 1925، ووثيقة صادرة من السلطان عبد الحميد بن عبد المجيد عن أسباب تخليه عن الخلافة، ورسالة ميشال عفلق المشهورة إلى حسني الزعيم في سنة 1949 بخط يد عفلق، فضلاً عن رسائل من عبد الحميد السراج. وعلاوة على ذلك، يتضمن الكتاب قائمة بأسماء الذين مارسوا التعذيب في سجن المزة بحق السجناء في سنة 1949 (ص 62). ومن ألمع الحوادث التي يسردها الكتاب حادثة تهريب الرئيس أحمد بن بلأ في مطار بيروت الدولي سنة 1955 وإنقاذه من أيدي الاستخبارات الفرنسية. وكان ممدوح رحمون هو الذي تولى بنفسه، وبمساعدة من عدنان الحكيم، إخراج بن بلأ، وكان اسمه الحركي آنذاك "المزياني مسعود"، من مطار بيروت إلى دمشق.

يتضمن الكتاب نحو 96 صورة. ومن أطرفها صورة غلاف أحد الكتب وهو بعنوان: "البعث وفلسطين: وثائق وبحوث الندوة الفكرية في الذكرى 12 لرحيل القائد المؤسس أحمد ميشال عفلق". وعلى صورة أخرى لأحد أعداد مجلة "الأقلام" العراقية وردت العبارة التالية: "أحمد ميشال عفلق أديباً". وهكذا تحول ميشال عفلق إلى أحمد ميشال عفلق، وهذه من ترهات صدام حسين.

يجول كتاب ممدوح رحمون في أزمنة متعددة. وفي بعض الحالات تتشابك الوقائع والتواريخ حتى تفقد تسلسلها الزمني. ثم إن كثيراً من الوقائع افتقر إلى تواريخه؛ فمثلاً، في عرضه للاشتباكات التي حدثت بين أهالي الغوطة وأهالي مخيم اليرموك في زمن الوحدة، يقول: "في أحد الأيام عدت إلى منزلي..." (ص 429). وكان يجب ذكر التاريخ، ولو حتى التقريبي. وفي معرض الكلام على زيارة المطران مكاريوس إلى دمشق يقول: "اتصل بي نائب الرئيس السيد عبد الحميد السراج". غير أن الكتاب لا يفصح متى حدث ذلك. ومهما يكن الأمر، فربما كان من الأجدى تقسيم الكتاب بطريقة أخرى، بحيث يتضمن القسم الأول السيرة الذاتية كاملة، ويتضمن القسم الثاني، على سبيل المثال، خواطر المؤلف، ثم الرسائل والوثائق في القسم الثالث، والمحاضرات في القسم الرابع... وهكذا.

صقر أبو فخر

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي

التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:

http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx